تغريب اللّسان العربي وأثـــره على الانتمـــاء
في فكر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

د. مالـــك عـــوادي
جامعة سوق أهراس

ملخص:

تروم هذه المداخلةُ إبرازَ جهودِ رجال الإصلاح في الجزائر وحملهم لواء "تحدي الحفاظ على الهوية"و بيان كيف نبهوا إلى خطورة ما يقوم به المستعمر الفرنسي من ضرب للعربية عن طريق محاصرتها و منع تعلمها بل وصل الأمر إلى حد تجريم تعليمها، وكيف حذروا من مغبة ذلك مبيّنين أن المستهدف من خنق اللسان العربي وتشويهه وتغريبه هو الانتماء الديني للأمة، وكذا حضارتها وثقافتها، و يأتي في مقدمة هؤلاء الرجال الأفذاذ الشيخ الإمام محمد البشير الإبراهيمي الذي أوقف حياته على خدمة اللغة العربية، إذ يصرح بذلك قائلا : «لأن موضوع العروبـــــة أو العربية في الجزائر هو الموضوع الذي قسمه الله لي وجعله ميدان أعمالي ،وأحاديثي ومجال قلمي عشرات السنين»[1].

لقد نبّه الشيخ البشير الإبراهيمي في الكثير من مقالاته و خطبه و أحاديثه إلى خطورة تغريب اللسان العربي لأن في ذلك ضربا لمقومات الأمة و هدما لهويتها و طمسا لمعالم شخصيتها ، فاللسان العربي هو «تاريخ هذا الدين ، ومجلي مواقع العبر منه ، و لأنه قبل ذلك و بعد ذلك لسان أمة شغلت حيزا من التاريخ بفطرتها وآدابها وأخلاقها... »[2]

Abstract

The present work is an attempt to shed light on the efforts made by Algeria's Reformation leaders who raised the standard of identity protection. They warned against the French colonizer who constricted the education of the Arabic language and dared to incriminate it. The Algerian reformers informed about not

only the deformation of the Arabic language but our nation's Islamic identity, civilization and culture. One of the most leading Algerian reformers was Mohamed Al-Bachir Al-Ibrahimi. He devoted himself to serve the Arabic language and asserted that, "Arabization in Algeria is my destiny, fieldwork and writings for many decades."[1]

In his articles, speeches and interviews Cheikh Mohamed Al-Bachir Al-Ibrahimi warned against the danger of the Arabic language westernization which does not stop threatening our nation fundamentals, values and identity. For him, Arabic language is "the history of our religion, Islam, from which we can learn lessons. It is a language that has been nourishing history through its instinctive and moral standards."[2]

مقدمـــة:

تقاس عظمة الرجال بعظمة القضايا التي أفنوا أعمارهم في خدمتها، وبشدة الصعاب التي واجهوها، وبخطورة المواقف التي مروا بها ، وبجسامة الأحداث التي عايشوها ، والشيخ البشير الإبراهيمي بموجب هذه المقاييس رجل عظيم لأنه أفنى عمره في خدمة الإسلام و أوقف حياته على الذود عن العربية و التمكين لها ، و وهب نفسه للجزائر، فكان بحق خادما أمينا لهذه القضايا الشريفة (الدين و اللغة و الوطن) ، و إنه لعمري قد حاز المجد من جميع أطرافه بخدمته للإسلام ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فصلت /33 ،هذه الخدمة التي تجلت في الدعوة إلى الاقتداء بنهج السلف الصالح ، ومحاربة البدع و الضلالات التي ألصقت بالدين الإسلامي – و الإسلام منها براء –، و في الدعوة إلى الإصلاح و هو منهج الأنبياء و المرسلين ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ هود / 88 . أمّا خدمته للعربية فهو متمّم لخدمته للإسلام و لا ينفصل عنها – وهذا ما سنعرض له بشيء من التفصيل بإذن الله تعـــالى– و أما خدمته للجزائر فلأنها وطنه الذي دينه الإسلام، و لغته العربية ، و الذي يريد المحتل الفرنسي سلخه عن انتمائـــــــه الديني

واللغوي و الحضاري، وبخدمته لهذه الأيقونات الثلاث يبتغي تحقيق شعار جمعية المسلمين الجزائريين- التي حظي الشيخ بشرف رئاستها-: (الإسلام ديننا و العربية لغتنا و الجزائر وطننا) ، و تجسيد مقولة ابن باديس الخالدة :

شعب الجزائر مسـلم و إلى العروبة ينتسـب

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

و ما من شك في أن من نذر نفسه للنهوض بهذه المهمة الشريفة و النبيلة لن يجد الطريق ممهدا ، فدون ذلك مصائب جمة ، و صعاب كثيرة ، و عوائق خطيرة و أخطار جسيمة و(من يخطب الحسناء لم يغلها المهر) ، فقد واجه الإبراهيمي ظلم المستعمر فتعرض للسجن و النفي ، و جابه عداوة و مكر رجال الطرق الصوفية المنحرفين ، وتصدى لضلالاتهم و انحرافاتهم ، كما عانى جهل الأمة ، وكابد جمودها...، ولكن رغم كل ذلك شقّ الإبراهيمي دربه صوب غايته الشريفة لا يثنيه عنها شيء ، تحدوه في ذلك إيمان راسخ و عزيمة متقدة و همة عالية ، فلم يبـع و لم يشتر ، و لم يبدل و لم يغير حتى لقي ربه.

و لا بأس أن نسوق في هذا المقام شهادات بعض الذين عرفوا الشيخ ، وخبروا غيرته على العربية وكرهه أن يرى أبناء جلدته يرطنون بلغة سواها لأنه كان يخشى الاستعمار الثقافي خشيته الاستعمار العسكري ، يقول الإمام محمد الغزالي – رحمه الله- « ومعرفتي بالشيخ البشير الإبراهيمي تجعلني أتساءل عن حدود الوفاء للقيم والمبادئ التي عاش من أجلها ومات في سبيلها؟. إني أتخيله حيًا، وأتصور أنه يسمع رجلاً يرطن بالفرنسية، ما أحسبه يتركه دون تقريع وتعنيف بالغين. وله الحق في غضبه فإن الاستعمار العسكري ذَنَبٌ والاستعمار الثقافي هو الرأس،»[3] .

ويقول الدكتور عز الدين إبراهيم في هذا الشأن أنّ الإبراهيمي كان مدركا «لأهمية اللغة العربية و أنها عنوان الهوية ، ووعاء الفكر و أداة التواصل و لسان الدين الحنيف بقرآنه و

سنته و تراثه و حضارته ، وقد بين مرارا أن المستعمر يحرص على محو هذه اللغة تعلما و استعمالا »[4]

و اتّكاء على ما سلف من القول فإنّ منهجنا الذي سنعتمده في هذه المداخلة الموسومـــة بـــ" تغريب اللسان ومخاطره على الانتماء في فكر الشيخ الإبراهيمي" سيكون رصدا لأفكار الشيخ فيما يتعلق بقضايا الدفاع عن اللغة العربية من حيث علاقتها بالدين، و ارتباطها بالوطن و الأمة ، وكونها لغة علم و حضارة لا يعجزها مواكبة التطور، هذا من جهة، ومن جهة أخرى سنرصد جهود الإبراهيمي في التصدي لمحاولات المستعمر لضربها و طمسها، و استبدالها باللغات الأجنبية، و الرطانات الأعجمية، و اللهجات المحلية، مستغلا في ذلك كل الوسائل حتى يتسنى له تغريب ألسنة أبناء العربية ليسهل عليه بعد ذلك تشويه عقائدهم ، و مسخ عقولهم ، وتدمير هويتهم .

وقد اقتضت منهجية المداخلة تقسيم الموضوع إلى العناصر الآتية :

- علاقة العربية بالإسلام في تصور الإبراهيمي.
- عروبة الجزائر من منظور الإبراهيمي
- مواقف الإبراهيمي من محاربة المستعمر للعربية
- الإبراهيمي و مخاطر تغريب اللسان
- خاتمة

وهي عناصر– أزعم — أنها متعالقة و منسجمة فيما بينها ،و يكمل بعضها بعضا.

علاقة العربية بالإسلام في تصور الإبراهيمي.

إن بين العربية و الإسلام وشائجَ قربى لا تُقطع ، وحبالَ صلةٍ لا تُفكُّ ، فهما متلاحمان متمازجان ،لا يذكر أحدهما إلاّ ويستدعى الآخر ، فبالإسلام حظيت العربية بشرف الخلود و توّجت بتاج الوقار ، و بالعربية فُهم الإسلام ، وأُنزل كتابه ، وإنه لمن المتيسر على كل باحث في العلاقة بينهما أن يهديه بحثه إلى ما بين الاثنين من قوة هذه العلاقة، و متانة الرابطة ، والإبراهيمي الذي وهب حياته للإسلام و العربية أفاض الحديث

في هذه المسألة ، وإن المطلع على خطبه و رسائله و أعماله يخرج بتصور مفاده أن الشيخ – رحمه الله– يعتقد جازما أنّ بين العربية و الإسلام رباطا مقدسا لا انفصام له، وأن هذا الرباط يتمثل في القرآن الكريم، ومن ثم فإنّ العمل على إحياء العربية و الذود عنها إنما هو عمل للإسلام و ذود عن حياضه ، فاستمع إليـــه و هو يقول «وأما إحياء مجد اللسان العربي فلأنّه لسان هذا الدين و المترجم عن أسراره، ومكنوناته، لأنه لسان القرآن الذي هو مستودع الهداية الإلهية العامة للبشر كلهم ، لأنه لسان محمد بن عبد الله ﷺ صفوة الله من خلقـــه و المثل الأعلى لهذه النوع الإنساني الذي هو أشرف مخلوقات الله، و لأنّه لسان تاريخ هذا الدين و مجلي مواقع العبر منه»[5]، و يمضي الإبراهيمي في إبراز هذه العلاقة القوية بين اللغة و الدين ، مشيرا إلى إدراك الأمة الجزائرية لأهمية هذه العلاقة حيث يقول في مقال له بعنوان "اختلاف ذهنين في معنى التعليم العربي"«لغةُ الأمة هي ترجمان أفكارها، وخزانة أسرارها، والأمة الجزائريةُ ترى في اللغة العربية– زيادةً على ذلك القدر المشترك– أنها حافظة دينها، ومصححة عقائدها، ومدوّنة أحكامها، وأنها صلةٌ بينها وبين ربّها»[6]

و يؤكد هذا الاعتقاد بالتحام العربية بالإسلام قولُه في كلمته التي ألقاها في مجمع اللغة العربية بدمشق ارتجالا، «لو سألتموني أيها الإخوان– ماذا أحببت من الأمة العربية ؟ ولماذا أحببتها هذا الحب الذي بلغ درجة الافتتان؟ – و أولها جاهلي وآخرها جاهلي – لأجبت جوابا يأكل الأجوبة كلّها، و يسكت الشقاشق الهادرة، و هو أني أحببت منها ما أحب الله منها يوم أنزل وحيه الكامل بلسانها ،و اختار رسوله الخاتم من أبنائها ، و حسبي شرفا أن أحبّ ما أحب الله»[7]

و بناء على هذا الرباط المقدس الذي يجمع بين العربية و الإسلام فإنه يحق لنا القول بأنّ العربية ليست لغة عنصر دون عنصر أو لغة للعرب فحسب ، بحيث يجري عليها ما يجري

على اللغات الأخرى من تفاضل و تفاوت، بل هي أشرف و أرفع من ذلك، وها هو الشيخ الإبراهيمي يوصي المسلمين من غير العرب بهذه الحقيقة التي آمن بها، «إن اللغة العربية ليست لغة العرب حتى توضع في موازين الترجيح و تتعاورها العصبيات بين جنس وجنس ، أو تعلو إليها الأنظار الشعوبية ، و لكنها لغة القرآن وخيرة الله لكتابه»[8]

و فضلا عن كون العربية لسان القرآن وبـــها يعرف خطاب الله لعباده و يدرك، فإن لها مزية أخرى تستحق الإشادة و التنويه ذلك أنها أسهمت إسهاما كبيرا في توطيد أواصر الوحدة بين أبناء الأمة الإسلامية، و دفع أسباب الفرقة عنهم ، لأنه كلما كانت لغة الأمة واحدة كانت دواعي الوحدة بين أبنائها أقوى و أوكد ، وهذا ديدن العربية مذ جاء الإسلام «فاللغة العربية منذ دخلت في ركاب الإسلام على الأمم التي أظلها ظله كانت سببا في تقارب تفكيرهم و تشابه عقلياتهم، و تمازج أذواقهم، و توحيد مشاربهم، و أن هذا لمن المناهج الجديدة في توحيد الأمم المختلفة الأجناس ، ولولا العربية لاختلفت الأمم الإسلامية في فهم حقائق الدين باختلاف العقليات الجنسية» .[9]

كما أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية للإسلام، ومن هنا تحتم المحافظة عليها، و وجب تعلمها إذ هي«لغة الإسلام الرسمية، و من ثم فهي لغة المسلمين الدينية الرسمية، ولهذه اللغة على الأمة الجزائرية حقان أكيدان ؛كلّ منها يقتضي وجوب تعلّمها فكيف إذا اجتمعا ؛ حق من حيث إنها لغة دين الأمة بحكم أن الأمة مسلمة، و حق من حيث إنها لغة جنسها بحكم أن الأمة عربية الجنس، ففي المحافظة عليها محافظة على جنسية و دين معا»[10]

ولقد أدرك المستعمر سرّ العلاقة بين اللغة العربية و الإسلام فراح يوجه سهامه المسمومة لضربها ومحاصرتها مبتغيا من وراء ذلك ضرب الإسلام ، تحركه أحقاد الحروب الصليبية ، وتدفعه ثارات الصليبيين الحاقدين المتعصبين و في مقالة للإبراهيمي بعنوان "التعليم العربي و الحكومة" ، – يقصد حكومة فرنسا الاستعمارية– يبرز حقائق وملابسات تلك المعركة

بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، و السلطات الحكومية الاستعمارية التي وضعت العراقيل أمام التعليم العربي في الجزائر،- و هو ما سنذكره لاحقا بإذن الله تعالى- يكشف الإبراهيمي عن حقيقة هذه المعركة؛ التي هي معركة بين عقيدتين وديانتين ، فيجهر بإعلان هذه الحقيقة التي حاول المستعمر أن يخفيها داعيا أبناء الأمة أن يأخذوا حذرهم قائلا: «الحقيقة التي يجب أن تعرفها أمتنا من هذه المعركة و يجب أن تشيع فيها شيوع الحقائق المسلمة، و يجب أن يأخذ كلّ فرد منها حظه من معرفتها فهي أنها صراع بين الإسلام والمسيحية» [11]

و لكن رغم كيد المستعمر و محاولاته الرامية إلى ضرب الإسلام و العربية إلا أن الجزائر لم تستسلم و لم تنهزم لأنها تدرك أن لا عزّة لها إلا بهما وأن لا قيمة للحياة بدونهما، فقد ظلت كما وصفها الإبراهيمي «تعتز بعقيدتـــها و عروبتها و تعيش بهما و تعيش لهما»[12]

عروبة الجزائر من منظور الإبراهيمي

بعد هذه الإشارات التي أوردناها عن علاقة العربية بالإسلام ، وبعد هذه اللّمع التي أوجزناها عن بلاء الشيخ الإبراهيمي في إجلاء هذه الحقيقة في معرض جهاده الفكري عن مقومات الأمة و هويتها، نأتي الآن للحديث عن جهاد هذا الرائد المصلح وهو يقف على ثغر من الثغور التي حاول الاستعمار الفرنسي اقتحامها ، و تسديد الضربات للأمة من خلالها ...إنه ثغر عروبة الجزائر...

يرجع الإبراهيمي مشكلة العروبة في الجزائر إلى الاستعمار«أما في الجزائر فإن مشكلة العروبة أساسها وسببها الاستعمار الفرنسي، وهو عدو سافر للعرب وعروبتهم ولغتهم ودينهم الإسلام، ووجود المشكلة منوط بوجوده، فإذا زال زال العنصر الأكبر منها، والسبب الأعظم فيها، وإذا بقي- ولو إلى حين- فمشكلة العروبة في الجزائر سائرة إلى واحد من اثنين: إما أن نغلب الاستعمار على عروبتنا ونعالج مشكلتنا بأيدينا – وهذا ما

تفعله جمعية العلماء منذ قامت– ثم لا نجد عائقًا بعد الاستعمار الفرنسي لخلو الجزائر من العناصر العائقة كما ذكرنا، وإما أن يغلبنا الاستعمار على عروبتنا فتتطور المشكلة إلى شيء آخر وهو ما يقضّ مضاجعنا».[13]

وإن الدارس لتاريخ الجزائر الحديث ليعجب من دعاوي المستعمر وأضاليله ، و أباطيله التي كان يروج لها صباح مساء ، والتي تبناها بعض أذنابه، من ذوي النفوس الضعيفة ، والقلوب المريضة و العقول المشوهة مقولة أن الجزائر فرنسية، وأنّ العربية ليست أصيلة في هذا البلد، و أمام هذا الادّعاء الفاجر و التزييف الوقح للواقـــــــع و التاريخ لم يكن من الإبراهيمي الذي أدرك بثاقب فكره ، و صفاء بصيرته أن هوية الأمة تُؤتى من ثغر التشكيك في عروبتها و العبث بلغتها فانتفض معلنا بكل ثقة و صراحة في مقال له بعنوان " اللغة العربية في الجزائر عقيلة حرة ليس لها ضرة" أن «اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة و لا دخيلة، بل هي في دارها و بين حماتـــها و أنصارهاّ، و هي ممتدة الجذور مع الماضي» [14]

ثم راح يقيم الدليل، و يظهر الحجة على أن الجزائر و الشمال الإفريقي جزء لا يتجزأ من الأمة العربية، هذه الأمة التي نبت أصلها في جزيرة العرب وامتد فرعها إلى الشمال الإفريقي مستحضرا التاريخ بطريقة تنم عن معرفة واسعة بالحوادث ، و توحي بارتباط قوي بالماضي و الأسلاف في أسلوب رائع بليغ : «كأن الجزيرة العربية أمٌّ رؤوم لهذا الشمال، تعدّه فلذة في كبدها، فهي تعطف عليه وتحنّ إليه ، و تجعل منه مراوح لقيظها، وضفافا لفيضها، حنّت عليه في حقبة غابرة من التاريخ فرمته بقبائل يمانيين من بنيها الميامين (...) و حنّت إليه بعد الإسلام فأوفدت إليه الغر البهاليل من أصحاب محمد ﷺ يحملون الرحمة و السلام و البيان، و يفتحون الأذهـــان و العقول و الأفكار» [15]

و يتخذ الإبراهيمي من قضية عروبة الجزائر هدفا نبيلا يدافع عنه، وغاية سامية ينافح عنها، يعضده في ذلك إخوانه من أبناء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أخذت على

عاتقها مسؤولية قيادة معركة الهوية و الانتماء، وتمكنت بكل جدارة من صدّ ضربات الاستعمار لمقومات الأمة : « وجمعية العلماء هي التي أثبتت للاستعمار أنّ الدماء البربرية التي مازجت الدم العربي أصبحت عربية بحكم الإسلام»[16]

وفي الشأن نفسه يقول صفيُّه و خليله و شقّ نفسه الإمامُ العلامةُ ابن باديس رحمه الله: «إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنا ، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة و الرخاء وتؤلف بينهم في العسر واليسر، وتوحدهم في السراء و الضراء ، حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا أمه الجزائر و أبوه الإسلام، و قد كتب أبناء يعرب و أبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله ؛ وما أسالوا من محابرهم في مجالس الدرس لخدمة العلم»[17]

ورغم ما أصاب اللغة العربية من تضييق و تهميش فإن الإبراهيمي لم يفقد الأمل و لم يترجل من على صهوة جوداه ، و لم يبرح ساحة المعركة بل ظل مطمئنا إلى أن هذه الأمة متمسكة بلغتها «إن هذه الأمة تعتقد و تموت على اعتقادها أنّ لغتها جزء من كيانها السياسي و الديني و شرط في بقائها» [18]، و أن العربية بما أودع فيها من خصائص ومزايا قادرة على الصمود ،و إثبات الوجود « والأمة الجزائرية من أوفى الشعوب العربية لهذه اللغة، وأكثرهم برًّا بها وتمجّدًا واعتزازًا، وأقواها شبهًا بها في الشدة على العوادي، والصبر على المكاره، والثبات على المقاومة، فالعربية غالبتْ في هذا الوطن عدة لغات، فلم تهن و لم تغلَب، والأمة الجزائرية ناهضَتْ عدة استعمارات روحية ومادّية، فلم تقهر و لم تخذل»[19].

إن جهاد الإبراهيمي، في الذود عن العروبة و العربية، وحمله لواء الدفاع عن اللّغة التي أحبها و سرت في جسمه مسرى الدم في العروق، جعله يتصدى للمستعمر بكل شجاعة

و قوة يدحض زوره و يكشـــــف احتياله و أساليبه الرامية إلى ضرب العربية و زعزعة الشعور بالانتماء لدى الجزائريين إذ يقول رحمه الله :« ينكر الاستعمار عروبة الشمال الإفريقي بالقول و يعمل لمحوها بالفعل ، وهو في جميع أعماله يرمي إلى توهين العربية بالبربرية، و قتل الموجود بالمعدوم، ليتم له ما يريد من محو و استئصال لهما معا، وإنّما يتعمد العربية بالحرب لأنها عماد العروبة، وممسكة الدين أن يزول ، ولأنّ لها كتابه و مع الكتابة العلم ، و أدبا و مع الأدب التاريخ ، و مع كلّ ذلك البقاء و الخلود، و كلّ ذلك مما يقض مضجعة، و يُطيّر منامه، و يصخّ مسمعه، و يقصّر مقامه»[20]

وبعد أن يرد كيد المعتدي في نحره ، ويثبت أنّ العربية قد كتب لها البقاء و الخلود، وأن الشمال الإفريقي الذي حاول المستعمر فصله عن امتداده الطبيعي (الأمة العربية) بافتعاله للقضية البربرية و إذكائه لنعرتها ... ها هو الإبراهيمي نراه –كما عهدناه– في جولة من جولاته يجالد الاستعمار في معركة الأصل و الانتماء « ومن أباطيل الاستعمار وتهافته أنه يسمي السوداني المتجنس بالجنسية الفرنسية ليومه أو لساعته فرنسيا، و يلحقه بنسبه و يساويه في حقوقه و مميزاته، ثم ينكر على البربري مثلا أن يكون عربيا بعدما مرّت عليه في الاستعراب ثلاثة عشر قرنا و زيادة» [21]

مواقف الإبراهيمي من ضرب المستعمر للعربية

إن عداء المستعمر للعربية سافر، لا تخطئه العين ،حيث أنه لم يأل جهدا – منذ أن وطئت أقدامه أرض الجزائر– في محاربتها و خنقها و اجتثاثها ، وهذا ما كشفه الإبراهيمي و أجلاه «وكان للاستعمار الفرنسي عند اللسان العربي ترات وطوائل، فهو لا يزال يجهد جهده في محوه و استئصاله من الألسنة، و قد ارتكب جميع الوسائل الموبقة لمحوه من الجزائر»[22].

ولنقف مع الإبراهيمي في كلمته التي وجهها إلى مؤتمر التعريب في الرباط عام 1961 والتي أماط فيها اللثام عن دسائس الاستعمار و مكائده في ضرب العربية ، و التي جاء فيها: «... ثم ينتقل إلى اللغة وهي المقوم الأعظم للأمم، فيرميها بالتهوين و التوهين، و يحرّم تعليمها إلا بإذنه، ويثقلها بالقرارات و القوانين الجائرة حتى يصير تعليم القدر التافه منها شبه مستحيل، ثم يكاثرها بالرطانات الأوروبية الجليبة فيفسح لها المجال، و يمنحها العطف و الرعاية لأنها لغة الأسياد»[23].

و لا يتردد الإبراهيمي في تسمية الأشياء بمسمياتها دون مواربة أو خوف من السلطات الاستعمارية حين يواجهها بإدانة قوانينها الجائرة: «و قد بلغ غضب الاستعمار الفرنسي على اللسان العربي في الجزائر أن أصدر أحد رؤساء حكومة فرنسا و هو شوطان chautemps * قرارين عجيبين في شانه في يوم واحد؛ الأول عطل به جريدة من جرائد جمعية العلماء العربية، و ختمه بما معناه: إن كل جريدة تصدرها جمعية العلماء في الجزائر باللغة العربية في المستقبل فهي معطلة سلفا من دون احتياج إلى إصدار قرار بالتعطيل، و الثاني حكم بأن اللغة العربية في الجزائر تعتبر لغة أجنبية لا يجوز تعلّمها و لا تعليمها إلا بإذن خاص من الحكومة الاستعمارية»[24]

و في مذكرة جمعية العلماء إلى الجامعة العربية في شهر أوت 1954 يشنع الإبراهيمي على فرنسا حربها على الإسلام و العربية فيصرح :«ثم دأب الاستعمار (من مائة و نيف و عشرين سنة) على طمس كل أثر للإســـلام و العربية، و قطع كل صلة بينهما و بين الشرق، ليتم له مسخ الأمة الجزائرية، و إدماجها في الأمة الفرنسية ،ولكن المناعة الطبيعية في هذه الأمة و تصلبها في المحافظة على التراث الإسلامي المقدس وعلى خصائصها الشريفة دفع عنها ذلك الباء ،و أنقذها من ذلك المصير»[25].

وفي مقال له بعنوان :"حركة جمعية العلماء الجزائريين و واقع العالم الإسلامي" نرى الإبراهيمي ماضيا في درب النضال و رافعا لواء التحدي في وجه المستعمر البغيض، الذي لا يستريح ، ولا يملّ ، و لا يكلّ في مناصبة العربيـــة و الهوية الجزائرية العداء ، و من ثم فهو لا يبرح يدبّر المكائد للتخلص من العربية، لأنه يدرك نتيجة تمسك الأمة بلغتها وتعلّق أبنائها بها «ولا يزعج الاستعمارَ شيءٌ مثل الإعداد والتربية و الرجوع إلى منابع القـــوة والعزة من دين و لغة وتاريـــــخ ، و لذلك نراه يعمد إلى مقومات الأمة بالتشويه والمسخ والطمس حتى تنسى الأمة مقوماتها فيسهل عليه ابتلاعها و القضاء عليها... »[26].

ومن الوسائل الماكرة ، والمكائد الشيطانية التي لجأ إليها الاستعمار الفرنسي لضرب اللغة العربية في أقطار المغرب العربي هي إشعاله نار النعرة البربرية وإيقاظه فتنتها، والعزف على وتر التفرقة بين البربر و العرب ، وقد نبّه الإبراهيمي إلى هذه المكيدة و حذر منها، ونورد ما قاله في هذا الصدد في مقال له بعنوان " موجة جديدة " متحدثا عن الموجة الإذاعية المتحدثة باللغة البربرية التي أنشأتها فرنسا ليس حبا أو احتراما للهجة البربرية ، وإنما محاولة منها لضرب العربية و مزاحمتها:«...و إن الحكمة الاستعمارية في هذه المسألة خاصة –زيادة على ما تقدم –أن يشيع في هدا العالم الذي لا يعرف لهذا الوطن إلا لغة واحدة و هي العربية أنّ فيه لغة أخرى (...) وإن هذه العملية الجديدة سلاح مبتكر لحرب العربية»[27].

الإبراهيمي و مخاطر تغريب اللسان

ما فتئ الشيخ الإبراهيمي يحذر من مغبة تغريب اللسان ، وما ينجر عنه من أخطار ،إذ يتحول أبناء الأمة الذين تنكروا للسانهم و استبدلوا به اللسان الأجنبي إلى معاول هدم يسخرها المستعمر في تقويض كيان أمتهم ، هذا فضلا عما « يصحب تثقيفهم الأجنبي من تحقير لجنسهم ، و حكم على تاريخهم بالعقم الفكري...وإنها لمصيبة يجب أن ننبه إلى

خطرها، وأن نبادر بالعلاج، وإن دواءها الوحيد هو تثقيف أبنائنا تثقيفا عربيا شرقيا وحدا..»[28].

كما يحذر الإبراهيمي من سيطرة الثقافات الأجنبية على العقول و القلوب، لأنها سبيل تشتت أبناء الأمة و تمزقهم ، وسبب الإذعان للغير و التنكر للذات «...ولأنني أعتقد أن الخلافات السياسية التي مني بـــها الشرق يرجع معظمها إلى اختلاف الثقافات، فالمثقف ثقافة انجليزية يحترم انكلترا،والمثقف ثقافة فرنسية يحترم فرنسا وهكذا وزعنا الاحترام على الغير فلم يبق من احترامنا لأنفسنا شيء ،وكأننا استبدلنا بجنسيتنا الواحدة جنسيات متعددة ،كلها غريبة عنا ، وكلها مجمعة على اهتضامنا و هضمنا»[29].

و يرى الإبراهيمي أن الذين تثقفوا ثقافة أجنبية و استبدلوا لسانهم العربي باللسان الأعجمي يساعدون على خدمة أهداف المستعمر و هذا ما أثبته في قوله :«وقد وصلت فرنسا إلى بعض غاياتها في بعض أبنائنا الذين حصّلوا حظا من الفرنسية في كل من تونس الجزائر و المغرب الأقصى ، فأصبحوا يعتقدون أنها قاصرة عن أداء المعاني العالية في الفلسفة وجميع العلوم العقلية و النفسية و الصناعية ، يلوون ألسنتهم بهذا في مجالسهم الخاصة والعامـــة و يلوح لسامعيهم أن أحاديثهم تشف عن إعجاب بالفرنسية و تعريض بالعربية »[30].

ثم ها هو الشيخ الإبراهيمي يبين خطر إهمال التعليم العربي و تعويضه بالتعليم الأجنبي الذي يتخذ لسانا غير العربية «و إن هذا هو موضع الخطر على أبنائنا المتعلمين بلغة أجنبية من غير أن يسبق لهم إلمام بلغتهم. ذلك أنهم يحملون في أنفسهم، ككل البشر، تصوّرات ومعاني كثيرة وحقائق علمية وتخيلات ذهنية، ولا يستطيعون بيانها والتعبير عنها بلغتهم العربية في حال أنهم يستطيعون التعبير عنها باللغة الأجنبية التي يتقنونها، فأدّت بهم هذه الحالة بالتدريج إلى كراهية العربية، وانتهت بهم إلى بغضها، ثم إلى الحقد عليها واتهامها

بأنها لغة قاصرة، ضعيفة، أو ميتة، لا تستطيع أن تزاحم اللغات، أو تقوى على حمل الحضارات، ثم تنتهي بهم هذه الحالة إلى الانسلاخ من العروبة، وإلى احتقار الدين الذي تترجم عنه هذه اللغة، وذلك هو الضلال البعيد».[31]

و لنتأمل كيف وضع الإبراهيمي يده على مواطن الداء و مبعث الشقاء ،و أي داء أخطر من أن تصبح لغة الأمة محل سخرية و احتقار من قبل بنيها ، وأي مصيبة أعظم من تفضيل لغة الأجنبي على اللغة العربية ، واتهامها بالعجز و القصور ...وإن هذا الفعل ليخدش عروبة هؤلاء و يشكك في إسلامهم و سيظل وصمة عار تلاحق هؤلاء الممسوخين لأن صنيعهم هذا يعد من أقبح و أشنع ما وسم به المستعمر أتباعه و مريديه و يؤكد الإبراهيمي هذه الحقيقة المرة بقوله :«وإن هذا وحده لغميزة في عروبتهم و وطنيتهم و دينهم ،وإن هذا لشر آثار الاستعمار في النفوس ، وأفتك أسلحته في أجيالنا الناشئة »[32].

ثم يمضي الإبراهيمي في كشف جرائم المستعمر المتمثلة في محاربة اللغة العربية و طمس معالم الهوية من خلال قوانينه الجائرة، و تضليله بعض المفتونين به فيقول:«...كما جند قوانينه المتلاحقة على اللغة العربية يريد أن يقضي عليها و يرحلها من وطنها ،ويغمرها برطانته التي سحر بها ألباب المفتونين في هذا الشرق ،ليتخذ منهم أدوات إنسانية تلهج بذكره ، و تسبّح بحمده وشكره ، وتحسّن مقابحه وتستر سوءاته»[33].

وفي مقال له بعنوان «مشكلة العروبة في الجزائر » يورد ما يشعر به هؤلاء المفتونون بالغرب عموما و بفرنسا خصوصا ، وما يجدونه ملإي أنفسهم من صغار و ذل أمام أسيادهم من المحتلين و المستعمرين«و أصبح أبناء العروبة يتضاءلون و يتصاغرون إذا جمعتهم الحياة بأبناء الجنسيات الأخرى حتى ليكادون يتبرؤون من العروبة»[34].

ويسترسل في الحديث عن هذه المشكلة مبينا الأخطار التي تتهدد العربية من خلال مزاحمة اللغات الأجنبية لها، ومنافسة الرطانات الأعجمية لها ويصف هذا المصاب بقوله : « والعروبة لغة غمرتـــها الرطانات الأعجمية واللهجات العامية ، و اللغات الأجنبية ، والرطانات الأعجمية أخذت منها ثم تعالت عنها ، و اللهجات العامية مزقتها وأصبحت حجة عليها(...) واللغات الأجنبية زاحمتها في ضعفاء الهمم و العزائم من أبنائها»[35].

و لا يفتأ الإبراهيمي يذكر مخاطر مزاحمة تعليم الفرنسية للعربية محذرا من طلك أيما تحذير« إن أوجع الضربات المسدّدة للتعليم العربي، من هذا التشريع "الحربي" ما فرضه على المدارس العربية من تعمير خمس عشرة ساعة في الأسبوع بتعليم اللغة الفرنسية».[36]

خـــاتمة :

إن الدارس لفكر الإبراهيمي يدرك يقينا أن هذا الرجل ليس من ذلك النوع من الناس الذين يبدعون في تشخيص الداء ولكنهم يعجزون عن إيجاد الدواء ، و ليس من أولئك الذين يستهويهم التنظير ، أو الذين يقنعون بالبكاء وإقامة المآتم حزنا على الأوضاع، بل هو من ذلك الطراز الفريد الذي يحسن مداواة أمـــــراض الأمة ، و يفلح في وصف الترياق النافع لأدوائها ، ومن ثم فهو لا يكتفي بالتفجع على اللغة العربية و ما نزل بها من مصائب ، و ما أحاط بها من أخطار تهدد وجودها ، و تنذر باجتثاثها ، ولكنه يضع الخطط لدرء الموبقات عنـــها،و يرسم النهج العملي الذي يمكن من خلاله المحافظة على اللغة ، و لعلّ من الحلول الناجعة التي يقترحها الشيخ لهذه المعضلة التمكين للتعليم العربي الجاد و الهادف وهو حل جسدته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في

و لا يدخر الإبراهيمي جهدا في توجيه الناشئة و المتعلمين توجيها قيما ؛ يمكنهم من معرفة الأشياء على حقيقتها و يشعرهم بعظمة لغتهم التي استوعبت علوم الأمم الأخرى، و يجعلهم يدركون أن العربية «لغة مدنية وعمران ولو لم تكن لغة متسعة الآفاق ، غنية بالمفردات و التركيب لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان وآداب فارس

والهند ، ولألزمتهم الحاجة إلى تلك العلوم تعليم تلك اللغات، و لو فعلوا لأصبحوا عربا بعقول فارسية وأدمغه يونانية ولو وقع ذلك لتغير مجرى التاريخ برمته »[37].

وإن مثل هذا التعليم كفيل بربط أبناء الأمة بدينهم و لغتهم و وطنهم ، و بجعلهم يعتزون بأن لهم ماضيا مشرفا و تاريخا مشرقا ، و حضارة عظيمة ، وهذا ما دأبت جمعية العلماء على ترسيخه في عقول المتعلمين من الشباب و الفتيان الذين تتلمذوا على أيدي علمائها و معلميها، و يذكر الإبراهيمي هذه المفخرة التي توجت بها هذه الجمعية المعروفة بجهادها الفكري في سبيل الدين و اللغة و الوطن حيث يقول : «وآلاف من الشباب العربي المسلم كان كالمجهول في نسبه وكالجاهل لحسبه ، ففتحت المحاضرات الحية أذهانه على تاريخ أسلافه و فتقت ألسنته على أدائهم»[38].

وفضلا عما سبق ذكره فإن من الحلول المقترحة لمعضلة التغريب هو تعريب اللسان الذي يناط به تحرير العقول و الأفكار، إذ هو معيار الاستقلال الحقيقي ، ولا معنى للاستقلال طالما ظلت الألسنة متغربة ، وهذا ما ما ضمنه الشيخ خطابه الذي وجهه إلى مؤتمر التعريب بالرباط سنة 1961 إذ جاء فيه « فاستقلال العرب لا يتم تمامه إلا بتعريب ألسنتهم و أفكارهم و هممهم و ذممهم إلى آخر م للعرب من صفات و أخلاق »[39].

و التعريب الذي يدعو إليه الإبراهيمي هو تعريب شامل يلامس جميع مناحي الحياة ، و منها الحياة الأدبية لما للأدب من تأثير على النفوس و سلطان على القلوب « يجب أن يظل أدبنا عربيا في أصوله و قواعده ، لا شرقيا و لا غربيا ، يجب أن يظل أدبنا عربيا يستمد شخصيته و أهدافه من حاجاتنا الواقعية لا المفتعلة و لا المزيفة»[40]

ويقترح أسلوبا قويما و منهجا سديدا في التعريب قوامه الآتي:« ولنعرب ما استطعنا من الألفاظ، والمصطلحات، والتعليم، وكتبه، وأساليبه، ولغته، ولننقح على قدر الإمكان،

ولنكل بقية التصفية والغربلة للزمن، فإننا اليوم في وقت ضرورة تتقاضانا الاستعجال في كل شيء، وليس المستعجل كالمتأني، ولنطهر لغتنا من أوضار الاستعمار ولغاته، ولا ندع أجيالنا الناشئة تنشأ على اعتقاد ناقص في لغتها، بل نتحيّل لها في جلب معاني الاعتزاز بها، ونغرس فيها معاني التمجيد لها».[41]

وحتى نجنب أبناءنا مخاطر تغريب اللسان فإن الإبراهيمي يوجه نصيحة للمعلمين ، هذا نصها: «ومن الحكمة في هذه المرحلة ألَّا ينطق المعلمون أمامهم بكلمة أعجمية حتى لا تخدش ملكاتهم، فإن كلمة واحدة قد تفسد كل عمل»[42].كما يقترح أن يكون التعريب شاملا لكل مراحل التعليم و أطواره ، حتى تتحقق أهدافه و يصبح أبناؤنا بمنأى عن التغريب و آثاره « ثم تأتي مرحلة التعليم العالي فتكون الملكة العربية قد استحكمت في التلميذ وتمّ "تعريبه" على أكمل وجه، فإذا توسّع في اللغات الأجنبية فلا يخشى عليه انتكاس ولا تراجع، ولا استعجام، لأن لسانه أصبح عربيًّا، يؤيّده فكر عربي، وعقل عربي، فلا تزاحمه لغة أخرى مهما توسّع في أصولها وفروعها، ولأن أفكاره وتصوّراته الذهنية أصبحت كلها عربية، يملك تصويرها والتعبير عنها باللغة العربية بسهولة. وإن هذا هو موضع الخطر»[43]

ويوصي الإبراهيمي أبناء الأمة قائلا : «أوصيكم بأن تكونوا بررة بهذه اللغة الشريفة لتحيوها فتحيوا بها ، وما ذلك إلا بالتعمق في فقهها و الاصطباغ بآدابها (...) لم تأت هذه الوصية عفوا و لكني أرى من مجرى الأحـــوال و الحوادث أن هذه اللغة ما تزال في ليل مظلم مما تلقاه من حرب أعدائها و جفاء أبنائها ، و أن ميدان العـــراك بينها وبين الحوادث لم يزل فسيحا ، فاستعدوا للذود عن حياضها و النضح عن حقيقتها ، و ستكون العاقبة لها إن استعددتم لهذا الدفاع الجديد»[44].

و لعلّ الأمة قد استجابت لهذا النداء وعملت بهذه الوصية فكان له ما أراد «جاهدت هذه الأمة في سبيل لغتها جهادًا متواصلًا، كان من ثمرات النصر فيه هذه النهضة التعليمية التي ولدت الكتّاب والشعراء والخطباء والوعّاظ، وهي نهضة لم تعتمد الأمةُ فيها إلا على ما في نفسها من حيوية موروثة، و لم تلتمس فيها عونًا من أجنبيّ، بل لم تلقَ من الأجنبي إلا المعارضةَ الحادة والتثبيطَ القاتل؛ وكان من نتائج هذه النهضة إلحاح الأمة في المطالبة بمظهر سياسيٍّ وطني للغتها، وهي أن تكون رسميةً في المدارس والدواوين والأقلام والأحكام، وأن يعترف لها بمكانتها في وطنها، وأن تمحَى عنها تلك الوصمة التي لم تسبّ بأشنعَ منها، وهي أنها "أجنبيةٌ في دارها"» [45]

ورحم الله الشاعر الجزائري أحمد سحنون الذي قال في هذا الصدد مشيدا بأعمال الإبراهيمي وعزمه :

عزمُ "البشير" أحال العجزَ عاصفة ... والعزمُ كالسيف للأخطار بتار[46]

هوامـــش و مراجـــع :

1- آثار الشيخ البشير الإبراهيمي ج5 ص 148

2- آثار الشيخ البشير الإبراهيمي ج 1 ص 134

3- محمد الهادي الحسني ، البشير الإبراهيمي في عيون معاصريه، عالم الأفكار ، الجزائر 2007 ص71 .

4- أ.د عز الدين إبراهيم ، رؤية مشرقية لبعض إنجازات الإبراهيمي، الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي ، الجزائر 2005، ط 1 دار الغرب الإسلامي ، بيروت 2006 ، ص 152

5- محمد البشير الإبراهيمي ، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع و تقديم الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، ط1،دار الغرب الإسلامي ، تونس ، 2011 ، ج 1 ،ص 134

6- آثار الإبراهيمي ،ج 3 ،ص 281

7- آثار الإبراهيمي ،ج 4 ،ص 225

8- آثار الإبراهيمي ،ج 4 ،ص 52
9- آثار الإبراهيمي ، ج1 ،ص 378
10- آثار الإبراهيمي ، ج3 ،ص48
11- آثار الإبراهيمي ، ج3 ،ص248
12- آثار الإبراهيمي ج4 ص 349
13- آثار الإبراهيمي ج5 ص 150
14-آثار الإبراهيمي ج3 ص 206
15-آثار الإبراهيمي ج3 ص58
16-آثار الإبراهيمي ج3 ص57
17-ابن باديس ، جريدة الشهاب ج 11 ، 11 من ذي القعدة 1354 /فيفري 1936
18-آثار الإبراهيمي ج3 ص284
19 - آثار الإبراهيمي ، ج 3 ،ص 282
20- آثار الإبراهيمي ج 3 ص 430
21-آثار الإبراهيمي ج 3 ص 430
22- آثار الإبراهيمي ج 5 ص 261
23- آثار الإبراهيمي ج5ص261

* هو كاميل شوطان Camille Chautemps الذي أصدر في مارس 1938م قانونا يعتبر اللغة العربية لغة أجنبية بالجزائر يمنع تعليمها و يجرم تعلّمها.

24 - آثار الإبراهيمي ج5 ص 262
25- آثار الإبراهيمي ج4 ص343
26- آثار الإبراهيمي ،ج4 ، ص213
27- آثار الإبراهيمي ، ج3 ، ص400
28- آثار الإبراهيمي ، ج2 ، ص 39
29- آثار الإبراهيمي ، ج2 ، ص 39
30- آثار الإبراهيمي، ج5 ، ص 262

31- آثار الإبراهيمي ج5 ص 265
32- آثار الإبراهيمي ج5 ص 262
33- آثار الإبراهيمي ج 5 ص 237
34- آثار الإبراهيمي ج 5 ص150
35- آثار الإبراهيمي ج 5 ص 150
36- آثار الإبراهيمي ج 3 ،ص 145
37- آثار الإبراهيمي ج 1 ص376
38- آثار الإبراهيمي ، ج 2 ،ص 235
39 -آثر الإبراهيمي ، ج 5 ، ص 265
40- آثار الإبراهيمي ، ج 5 ، ص 213
41 - آثار الإبراهيمي ،ج5 ،ص 263
42- آثار الإبراهيمي ،ج5 ،ص 264
43- - آثار الإبراهيمي ،ج5 ،ص 265
44- آثار الإبراهيمي ،ج2 ،ص 39
45- آثار الإبراهيمي ،ج3 ،ص 282
46- جريدة «البصائر»، عدد 5425 أكتوبر سنة 1948